المدرسة الماركسية المادية(Historical materialism)

تأسست هذه المدرسة على يد كل من كارل ماركس(1818-1883) وفريدريك إنجلز (1820-1895). شملت الماركسية فيما بعد جهود مفكرين وسياسيين ماركسيين كثيرين من أمثال لينين، وتروتسكي وستالين وماوتسي تونغ وغيرهم. وليست الماركسية نظرية مادية فحسب، بل هي نظرية جدلية تعتبر أن كل ظاهرة تحمل في أحشائها الشيء ونقيضه، واعتمدت هذه المدرسة على دراسة التاريخ الشامل، وجعلت من العامل الاقتصادي دور مهم في صنع الأحداث التاريخية،والتركيز على الطبقات الكادحة في الدراسة، وتراتبية المجتمع تراتبًا اقتصاديًا.

المادية التاريخية:

المادية الجدلية هي امتداد و نتاج تطبيق المنطق الجدلي على التطور التاريخي للمجتمع ، و هي علم يفسر لنا كيفية تطور القوانين الاجتماعية وهي نظرية سوسيولوجية ، استخدمها ماركس في دراسة المجتمع لتحليل جوانبه المادية و قضية الإنتاج الاقتصادي و هي أساس دراسته، و مغزاها أن المادة أو الوجود هما أصل ظهور الوعي أو الفكر، و التي اتخذ منها ماركس محورا لنظريته، حيث تمكننا من معرفة الأساس المادي و الاقتصادي للعالم، و هي في تطور مستمر على أساس جدلي، فهي التي تبحث عن القوانين العامة و القوى الدافعة لتطور المجتمع الإنساني بصورة عامة و دراسة تاريخ المجتمعات و الشعوب و تاريخ تغير و تطور النظم الاقتصادية و الاجتماعية، و أيضا تدرس قوانين الحياة المعاصرة سواء كانت رأسمالية أو اشتراكية.

ففي رأي ماركس أن المجتمع ناتج من حركة المادة التي تشكل الطبيعة و خاصة أشكالها الطبيعية، حيث يقول أن سلف المجتمع البشري هو قطيع حيواني ينمو و يقوم على أساس الطعام و الجنس و تحوله البيولوجي إلى مجتمع بشري كان نتاج تأثير مباشر للعمل و النشاط المزود بالأدوات و لتحقيق هدف محدد كان لا بد من خلق أدوات ضرورية للعمل على تطوير أشياء طبيعية و كان المجتمع البشري نتاج سعي الإنسان إلى تغير صفاته من جهة و كذا الأدوات التي يؤثر بها في الطبيعة من جهة اخرى, فظهرت هناك روابط في العمل، فتفاعل الطبيعة و المجتمع شرط ضروري لقيام المجتمع بوظائفه و تطوره و من ثم تؤثر الطبيعة في المجتمع و يؤثر هو عليها حسب آليات محددة. وحسب الدراسة التاريخية لماركس رأى أن الإنتاج المادي هو أساس وجود المجتمع فكل من الرؤى السياسية، الأخلاقية، التشريعية و الدينية تقوم على أساس الإنتاج و هو الأساس الاقتصادي للمجتمع و هذا الأخير يقوم على طبقات تعكسها المصالح المتضاربة والتي تقوم على العداء و من ثم قدم وجود المادة على الوعي و بنى علم الاجتماع على أساس قاعدتين هما:

الوجود الاجتماعي: و يتمثل في الظواهر المادية في المجتمع (نشاط، إنتاج، عمل، استغلال و تأثير الطبيعة)

الوعي الاجتماعي: و هو مجموعة الظواهر الروحية من (أفكار، نظريات، مشاعر، تقاليد و أعراف) و التي تعكس الوجود الاجتماعي للناس في مجتمع ما.
و باختصار فان جوهر المادية التاريخية يعود إلى البناء الفوقي للمجتمع الذي هو ناتج البناء التحتي للمجتمع، حيث أن هذا الأخير هو مجموع علاقات المجتمع الاقتصادية ، و البناء الفوقي هو القوانين والأخلاق والسياسات العامة ، و تعتبر الماركسية أن البناء الفوقي للمجتمع يعكس بنائه التحتي ، فمثلا في المجتمع الرأسمالي تتولد دولة تخدم المصالح الرأسمالية وأحزاب لا تتناقض مع الرأسمالية و تسن القوانين بما يخدم الرأسمالية.

نظرية الصراع الطبقي:

يعد كارل ماركس مؤسس اتجاه الصراع الذي هو أحد الاتجاهات الأساسية في النظرية الاجتماعية، و السبب في هذا الصراع هو صراع قائم على المصالح بين الطبقات الاجتماعية و التي اعتبرها ماركس تناقضات داخلية تظهر في المجتمع و تنجم أساسا من تأثير علاقات الإنتاج على حياة الناس و التي تؤثر على طريقة تفاعلها، فالطبقات المالكة لوسائل الإنتاج تكون قادرة على استغلال الطبقات الأخرى لصالحها و من جهة أخرى فأن الطبقات التي يقع على كاهلها نتائج الاستغلال مهتمة بإحداث تغييرات أساسية في هذا النظام، لتضع حدا لاستغلاله إذا أصبح لدى تلك الطبقات وعي كاف تصبح الثورة لا مفر منها و من نتائج هذه الثورة المزيد من التقدم التكنولوجي الذي لم يكن متواجدا من قبل.

فلسفة التاريخ عند كارل ماركس :

التاريخ البشري عند كارل ماركس ليس في النهاية سوى صراع طبقات، تفوز فيه الطبقة التي تنسجم مع تطور وسائل الإنتاج والعلاقات الاقتصادية الناشئة عنها،(...) ويظل هذا الصراع قائما إلى أن تفوز طبقة العمال، فتزيل الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، فيتساوى الناس المساواة الاقتصادية التامة, وهي في نظرهم المساواة الحقيقية، ويصبحون بذلك كلهم طبقة واحدة، وتذهب بذلك أسباب الحروب وتنتشر ألوية العدل والإخاء والسلام.
فكل شيء في نظر ماركس يتضمن نقيضه، بحيث كل شيء يهدم نفسه، وهذا هو التصور العام لمبدأ النقيض، ولكن كارل ماركس يستخدمه للتدليل على وقوع انهيار الجماعات التي قامت على الرأسمالية، فالجماعات السابقة عليه وهي الملكيات المطلقة والوراثيات والإقطاعية والزراعية انهارت في رأي الماركسية، لأنها تضمنت عنصر النقيض، وعلى هذا الأساس ستنهار الرأسمالية وتتحول إلى النقيض، وهي الاشتراكية ذات الطبقة الواحدة.
وبتطبيق هذا الأسلوب في البحث نرى أن التاريخ عند الماركسيين قد مر بعدة تطورات ومراحل، ابتدءا من الشيوعية البدائية الجماعية إلى نظام الطبقات، متمثلا في انقسام المجتمع إلى سادة وعبيد في العصور القديمة، والى سادة إقطاعيين وأقنان في العصر الإقطاعي، ورأسماليين وعمال أجراء في العصر الحديث، وان هذا التطور يتجه بفعل القوانين التي تتحكم فيه إلى نظام جديد تزول فيه المصالح الاقتصادية المتضاربة.

- بعض الانتقادات الموجهة إلى المادية التاريخية :

يؤخذ على أفكار هذه المدرسة وأصحابها عدد من الماخذ منها :

- التفسير التعسفي للمادة التاريخية(..)، فعلى الرغم مما تناولته المادية التاريخية عند ماركس من قضايا، مثل الحتمية التاريخية والتطور التاريخي والصراع الطبقي بهدف دراسة علمية للتاريخ، إلا أن نظريته في تفسير التاريخ جاءت بعيدة عن علمية التاريخ، حيث أهملت العوامل القومية والعقائدية والمذهبية والنفسية والروحية وغيرها.

- بالغت الماركسية في إعطاء الاقتصاد الدور المسيطر في حركة التاريخ، وتجاهلت التأثيرات الروحية الكبرى في الانتفاضات الاجتماعية، وبالأخص إذا كانت الأيديولوجيات الدينية هي المحرض الأول، وان الأساس الاقتصادي للمجتمع عامل واحد فقط من عوامل تصوير الشكل العام للحضارة لذلك لا يجب تفسير التاريخ على أساس مبدأ واحد(..) وإنما على أساس عدد من العوامل المعقدة المتشابكة التي تتداخل معا.

-كما يؤخذ على المادية التاريخية أنها تعتبر الإنتاج وحده هو الذي يحدد شكل العلاقات بين الأفراد, وان قوانين الصراع الطبقي ونمو التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية هي فقط القوانين الحقيقية التي تحكم مسيرة التاريخ.

-كما أن أصحاب هذه المدرسة لم يأخذوا التاريخ كنموذج يستنبطون منه قانون حركته وإنما اختاروا بضع مراحل وأحداث هي التي وجدوا فيها مصداق كلامهم، وأهملوا الباقي (اسيا،العالم العربي..)، وشمل تركيزهم فقط على التاريخ الأوربي.

فرغم اعتبار الجهود الرامية لإرضاء الحاجات المادية (..)هي عوامل أساسية في التاريخ الإنساني, إلا أن التصور بان جميع وجوهها محددا في النهاية بهذه الاحتياجات، وطرق إرضائها قد حورب ويمكن أن يحارب على أساس من وقائع التاريخ نفسه , فإذا كانت نظرية هيغل القائلة بان الفكر أساس كل ما هو موجود(..) وان العقل الإنساني يتحرك دائما متقدما نحو الأمام ليصل إلى العلم المطلق قد بلغت القمة في التجريد (..) فان الماديين الذين انتقدوا مذهبه (..) ذهبوا في تفسيرهم مذهبا خالصا, وهكذا انتقلوا من النقيض إلى النقيض, ووقعوا في مبالغات كثيرة غير منطقية, فبدلا من يقوم ماركس بتعديل وضعية الرجل الهيغيلي الذي يمشي على رأسه , فقد اخطأ المحاولة وجعل الرجل المسكين يمشي على بطنه! أي على معدته.